اللغة العربية وتحديات العصر

ملخص

الحديث عن القيم الذاتية للغة العربية تبدو في سياقها التاريخي ظاهرة لافتة للانتباه، فقد كانت تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، واستطاعت أن تكون لغة حضارة وعلم، فأثبتت بذلك أنها لغة متطورة متجددة قادرة على الاستيعاب إلا أن ما أصاب الفكر العربي من عقم وعجز أسهم في التقليل من مكانتها وقدرتها على مسايرة التطورات الفكرية المعاصرة غير أن هذه الرؤية لم تعد مقبولة، بل تشكل سندا استراتيجيا لتطوير اللغة العربية، انطلاقا من واقع متميز يقوم على استيعاب الماضي وتطلعات المستقبل في بناء تكامل حضاري في ضوء خصوصيات مجتمعها.

الأستاذ: عز الدين صحراوي
قسم الأدب
جامعة فرحات عباس – سطيف –

الحديث عن القيم الذاتية للغة العربية ومكانتها كلغة تحمل كل المقومات الحضارية قد تبدو في سياقاتها التاريخية ظاهرة ملفتة للانتباه ،حيث يسود الاعتقاد وكأن اللغات لا تخضع لقوانين ثابتة وموحّدة مما يجعل التفكير اللغوي عندنا غير منسجم ويخضع لتأويلات ربما تفقده خصوصيته العلمية الموضوعية.

قد نختلف في درجة التفكير حول معالجة قضايا لغوية فتتباين الطرق والأساليب، ولكننا لن نكون كذلك عندما يتعلق الأمر بتحديد ماهية اللغة وعناصرها الأساسية لأن ذلك من مسلمات الأولية في الفكر اللساني القديم والحديث. فهل العربية لغة تمتلك كل المقومات التي تجعل منها لغة علمية؟ قد يبدو هذا السؤال بسيطًا في حمولاته اللغوية ولكنه

Résumé

Point n'est besoin de rappeler que la langue arabe a reigné pendant des siècles comme étant la langue véhiculant le savoir et tous les aspects de la civilisation humaine. Pouvant contenir toutes en flux du savoir humain. La régression est essentiellement inhérente à la décadence du monde arabe en générale pendant des siècles, ce qui a influé d'une façon néfaste sur la langue arabe et l'a relégué à une place qui n'est pas la sienne. Ce constat

paradoxal ne peut qu'être bénéfique pour cette langue, dans la mesure où les bonnes volontés, les vraies intentions objectives la prennent en considération en exploitant ses caractéristiques fluides, et son potentiel inépuisable pour qu'elle reprenne sa place comme une langue vivante contemporaine.

– في واقع الأمر – يؤسس لفكر جدلي نال حظه من الممارسة النقدية إلا أن تبعاته ما تزال بحاجة إلا تجليات تعيد للتاريخ حيويته وللغة عبقريتها.

فلقد مر حين من الدهر كان للعربية والعلم شأن كبير يوم أن كانت للحضارة العربية نصيبها من الوجود فكانت العربية «اللغة العلمية، تحتكر المؤلفات العلمية ولا تُنتشَر إلا بها، فمن أراد أن ينشر علما يقرأه الناس لجأ إلى العربية»[1].

فاستطاعت أن تستوعب كل القضايا العلمية والمعرفية، ولم تقف عاجزة أمام التحديات الحضارية الأخرى، كما لم نجد من علمائنا من شك أو اشتكى من عجزها وعدم استجابتها لتلك القيم العلمية والتقنية الوافدة.

فلقد «كانت اللغة العربية، وهي لسان الأمة العربية لغة تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها واستطاعت أن تكون لغة حضارة إنسانية اشتركت فيها أمم شتى، كان العرب نواتها الأساسية والموجهين بسفينتها واعتبروها جميعا لغة حضارتهم وثقافتهم، واستطاعت أن تكون لغة الحقائق الرياضية والطبيعية ولغة الحكم والتشريع، ولغة التجارة والعمل ولغة الفلسفة والمنطق، ولغة التصوف، ولغة الأدب والفن»[2].

فالعربية بما تتوفر عليه من سمات وما هي عليه من خصائص ليست لغة قاصرة على احتواء المعارف العلمية المعاصرة، ودليلنا على ذلك أنها استوعبت في الماضي جل علومه وأثبتت كفاءتها وقدرتها على التأقلم مع ماجد من علوم آنذاك في الجامعات العربية. كما أن وجود بعض الآراء والمواقف التي تدعمها وتقوم عليها النظريات الغربية المعاصرة المجسدة في تراثنا يوحي بأن تفكير ونتاج علمائنا كان باللغة العربية وليس بغيرها.

«لقد بلغ العرب في ماضيهم مكانة أذهلت الغربيين بعد أن عرّبوا علوم الحضارات الأخرى ومعارفها وأراد الغربيون أن يحذوا حذو العرب ويقلدوهم وينقلوا علومهم ومعارفهم ويلحقوا بركب حضارتهم فوجدوا أنفسهم لما طفقوا ينهضون عاجزين عن محاكاة العرب وبلوغ شأوهم في العلوم و الكتابة والبيان»[3].

فلقد أثبتت العربية أنها لغة متطورة وعلمية بعد احتكاكها بحضارات وثقافات متنوعة وما خلفته من علوم في شتى دروب المعرفة، كما بقيت صامدة أمام ذلك الزخم الهائل من المعارف، وربما ساعدها على ذلك نشاط الحركة اللغوية التي جعلت منها لغة قادرة على التعبير عن خلجات النفوس ومبتكرات العقل والفكر.

كما أثبتت أنها لغة متجددة، قادرة على الاقتباس واستيعاب الألفاظ الدخيلة

«فأشكال الألفاظ العربية هي من جهة أبنية وقوالب وهيئات، ومن جهة أخرى أوزان موسيقية تدركها الأذن بسهولة ويُسر، فيدرك السامع جزءاً من المعنى مجرد إدراكه وزن الكلمة»[4].

وظلت العربية صامدة. ولا ننكر اتسام العربية بقدرة ذاتية على نقل الفكر الإنساني وتمثيله كما لديها القدرة على استيعاب المصطلحات وتمكينها البروز في تصانيف علمائها مما مهد الطريق لنظريات علمية ومعرفية.

«وتكاد تنفرد اللغة العربية عن اللغات الحية الأخرى بخاصية وفرة الألفاظ الدالة على الشيء منظوراً إليه في مختلف درجاته وأحواله ومتفاوت صوره وألوانه»[5].

كما أن مدلول الألفاظ يتطور تبعاً لتطور الشؤون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول «فاللغة العربية في جميع المستويات إنما هي أداة يكون لها من الصلاحية الناجعة، بقدر ما يكون لمستعمليها من الكفاية والبراعة»[6].

كما أ شاد المستشرق السوفياتي **كراتشوفسكي** في مدخل كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي بما كانت عليه اللغة العربية وما احتلته من مكانة ورفعة بفضل ما حققته من حضارة أبهرت الغرب. «إن المكانة المرموقة التي تحتلها الحضارة الغربية في تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع في عصرنا هذا. وقد وضح بجلاء في الخمسين سنة الأخيرة، فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لأنفسها طرقا ومسالك جديدة في العصور الوسطى ومازالت حية إلى أيامنا هذه، أعني علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والبيولوجيا والجيولوجيا أما فيما يتعلق بالأدب الفني العالمي، فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءا أساسيا من التراث العام للبشرية، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد من المصنفات والفنون الأدبية التي نشأت في بيئات غير عربية»[7].

«واقتحمت الكلمات الأعجمية ما تُركَ من فراغ بسبب موقف علماء اللغة المتصلبة والمحددة للتنمية اللغوية العربية»[8]. ثم تلت ذلك عصور متتالية ابتعد أصحاب اللغة العربية فيها عن العلم مما نتج عنه ابتعادهم عن لغة العلم ، والواقع أننا لم نفقد بابتعادنا عن طريق العلم والتجريب، لغتنا العلمية فحسب، بل انقطعت صلتنا بتراثنا العلمي، حتى صار يُتخَـيّل لكثير ممن يجهل تاريخنا العلمي، أن البحث العلمي التجريبي والتطبيقي، ليس من سمات العقلية العربية، وفي هذا يقول **ساطع الحصري**: «لاشك أن اللغة أمست اليوم عاجزة فقيرة بعد أن كانت بالأمس غنية وقديرة، فما ذلك إلا أن المتكلمين بها قد انقطعوا عن مزاولة العلوم منذ قرون، ولأنهم حبسوا أذهانهم في دائرة ضيقة من الأدبيات والشرعيات منصرفين إليها عن كل ما سواها»[9] فجمدت على حالها إلى أن جاءت العصور الحديثة مع تقدمها العلمي، فواجهناها بلغة فقيرة في المصطلح العلمي، ضعيفة في الأسلوب العلمي الذي يتسم بالدقة والإيجاز والوضوح.

وبعيدا عن هذه النظرة السوداوية المتشائمة مما عليه الواقع اللغوي في مرحلة من مراحل التطور التاريخي، فلا يمكن أن ننكر أن الفكر البشري في تطور مستمر، لينمو بطريقة فيها كثير من النماء المعرفي والخبرات الجديدة المكتسبة وتلك هي سنّة المجتمعات الإنسانية التي هي في تطور دائم نحو التمدن والازدهار.

فها هي ذي أصوات ترتفع في محيطنا اللغوي تنتقد، وتعتقد أن العربية لغة بعيدة عن مسايرة التطورات العلمية والتقنية «بدعوى أنها متخلفة عن العصر موغلة في القدم، لا تؤدي بصفة كاملة غير المضامين القديمة التي تجاوزها الزمن، فهي أعجز من أن تعبر عن مستحدثات الحضارة ومقتضيات التطور العصري الذي يعتمد بصـفة أساسية على العلـوم والتقنية»[10].

ويبررون ادعاءهم هذا بافتقار العربية إلى مجلات علمية متخصصة وكذا ندرة المؤتمرات العلمية والدراسات المخبرية التجريبية المعبرة عن قدرة العربية على معالجة مثل هذه القضايا العلمية المتطورة .غير أن ما تعورف عليه لدى علماء اللسانيات أن ذلك لا يعود إلى اللغة بقدر ما يعود إلى متكلميها «وأن ما يحتج به هؤلاء من قلة المجلات العلمية المتخصصة ومن ندرة المؤتمرات العلمية الجادة والأبحاث المشهورة فليس مرده إلى اللغة وإنما مرده إلى المتكلمين باللغة، إذ إن ظروف الحياة التي يعيشها

المتخصصون العرب لا توفر لهم المناخات العلمية للإنتاج والإبداع، كما أن كثيرا من إمكانات العرب المادية لم توجه إلى البحث العلمي الجاد والخلاق، ولا أدلّ على ذلك من أن المتخصص العربي عندما توفّر له إمكانات البحث في الدول الغربية، فإن أبحاثه تكون في المقدمة. ولو أن ما توفر لهم هنالك توافر لهم في أرضنا العربية من حيث المخابر والأدوات والوسائل والراحة النفسية، فإن مما لاشك فيه أن أبحاثهم كانت هي الأبحاث نفسها إن لم تكن أجودوني»[11].

وهكذا ينادون بضرورة أن تتوفر لديهم لغة علمية لا لغة دين وأدب، بل ويعتقدون أن جل أمراضنا آتية من تمسكنا باللغة العربية. إن هذه النظرة الضيقة المفعمة بالشك والتشكيك في قدرة اللغة العربية على استيعاب علوم العصر غير مجدية وتنطوي على كثير من المغالطات المرفوضة في عرف اللسانيات المعاصرة ، ذلك أن قيمة وقوة اللغة تتجسد أصلا في حرص مستعمليها على التمسك بها وتوظيفها في شتى الميادين حتى تكتسب مناعة وحيوية تؤهلها بأن تتجاوز حدود العجز والقصور. يقول **فنـــدرس**: «الواقع أننا لا نعلم إطلاقا لغة قد قصرت عن خدمة إنسان عن فكرة يريد التعبير عنها. فلا تنصت إلى أولائك المؤلفين العاجزين الذين يحمّلون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم، لأنهم هم المسؤولون على وجه العموم عن هذا النقص»[12].

فلم تكن ظاهرة الاستهانة بمكانتها وقيمها الجديدة علينا بل كانت لها جذور قديمة حتى في عصر قوتها إلا أن هذه الهجمة ما لبثت أن انبعثت من جديد عندما فُتنَ نفر من أبنائها ببريق الحضارة الغربية، فتنكروا لها، و لم يجدوا بداً من اتهامها بالتخلفَ والضعف والتشكيك في قدراتها وإمكاناتها في التعبير عن ضروب المعرفة ومستجدات العصر.

بل وذهبوا إلى تحميلها أسباب تخلفنا العلمي والتكنولوجي، فبالرجوع إلى كتاب **محمد محمد حسين** الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر نجد الحديث مفصلا في مثل هذه الدعوات حيث يقول: «يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا، فإنني كلما زادت معرفتي للشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني، وكذما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها.

هذا هوا مذهبي الذي اعمل له طول حياتي سراَ و جهراَ فأنا كافر بالشـــرق مؤمن بالغرب»[13].

فهم لا يرون في العربية لغة علمية صالحة للتعليم وقناعاتهم أنها لا تصلح بأن تكون لغة العصر ولا تليق إلا بالشعراء، وبطون المعاجم كما أنها تفتقر إلى المصطلحات العلمية والمراجع العلمية مما يُحتم على التعليم وبخاصة العالي منه أن يستعين باللغات الأجنبية في تدريس المواد العلمية.

«وهنا لا يسعنا إلا أن نشير إلا ملاحظة مؤلمة في هذا المجال، فمن المعروف أن المؤتمرات العلمية إحدى طرائق البحث العلمي، وتبادل الخبرات، ومن المفترض والمتصور أن مؤتمرات تنعقد في الوطن العربي يجب أن تكون لغتها العربية دون شك، وقد نتفهم أن يقدم باحث عربي (مغترب) دراسته إلى مؤتمر علمي بلغة أجنبية، وقد نسوغ على مضض أن يقدم عالم عربي من الوطن العربي بحثه بلغة أجنبية بحجة أن العربية لم تهيء له بعد المصطلحات الجديدة اللازمة للبحث، لكن المفروض والمنكر اشد الإنكار أن يعقد مؤتمر للسانيات غرضه دراسة مشكلات اللغة العربية، ومع ذلك تكون لغة البحث لدى بعضهم فيه اللغة الأجنبية»[14].ونسي هؤلاء المححفون في حق لغتهم أن «اللغة شأنـــها شأن الكائـــنات الحية تحيا وتتعرض للاضطراب والتطور والتقلب بين الازدهار والانتشار والقوة تارة وبين الضعف والتفكك والانهيار والتعرض للانحسار والانقراض تارة أخرى»[15] فإذا كان دعاة هذا الرأي يظنون أن اللغة العربية لا تفي باحتياجات العصر العلمية، وأن دورها لا يتجاوز القضايا الدينية والاجتماعية فهذا موقف مرفوض علميا.

لقد بدأت المشكلة بتخلفنا عن ركب الحضارة الذي سارت فيه وقادته شعوب أخرى في البلاد الغربية، ووجد بعض علمائنا أن هذه الدول قد سبقتنا كثيرا في ميادين كالطب والفيزياء. وكونت لنفسها رصيدا من المعرفة فيه. وأودعت هذه المعرفة في لغاتها وهي الإنجليزية والفرنسية في بداية الأمر واتسعت الهوة في تلك الميادين بين ما هو مدون بلغتنا العربية وبين ما هو مدون فيها بالإنجليزية او الفرنسية بحيث وجد علماؤنا انهم لو انتظروا حتى تترجم تلك المعارف إلى اللغة العربية لازدادت الهوة عمقا، وبخاصة انهم لم يروا جهدا يبذل لسد تلك الهوة. فبدؤوا

أصبحت اللغات الأجنبية هي لغة التعليم والتعلم لتلك المعارف في كلياتنا وكتبنا الدراسية

ومراجعنا وبحوثنا، فكان لا بد من الاستسلام لهذا الواقع اللغوي والتصديق بأن العربية لغة عاجزة وضعيفة أمام هذه اللغات المهيمنة وهذا الكم الهائل من المصطلحات الحديثة التي تتدفق في كل لحظة.

يقول **أحمد لخضر غزال**:«إن اللغة العربية غير قادرة على منافسة اللغة الفرنسية، فهي عاجزة على أن تستوعب المصطلحات الحديثة، وبالتالي فإن الحل يكمن في اعتماد الازدواجية اللغوية كشرط أساسي، إذا أرادت المجتمعات العربية أن تواكب الحضارة فعلا»[16].

ولذلك يجب أن «ننتقل من ازدواجية مفروضة إلى ازدواجية مُحَافَظُ عليها ومُعنى بها»[*] لان اللغة الأجنبية من شأنها أن تعيننا على إصلاح لغتنا من جوانب عديدة وأن تضمن لنا التفتح على عالم التقدم والرقي في انتظار أن تقوى أجنحة لغتنا»[17].

مما دفع بالسامرائي إلى تقديم إجابة مفعمة بالمرارة، ومعبرة في ذات الوقت عن خيبة أمل، يقول: «فلم يبق لنا إلا أن نهنئ أنفسنا على أن استُعمرنا، فالاستعمار أتاح لنا فرصة الإحساس بضعف لغتنا عن طريق خلق وضع ازدواجي»[18].

وإذا كنا لا نؤمن بالتقوقع والبقاء في دائرة اللغة العربية دون الاستفادة من خبرات اللغات الأجنبية، واعتمادها كأدوات تطورية في الانفتاح على آفاق المعرفة المعاصرة، وأن إتقانها عدة الباحث أيًا كان تخصصه، فإننا في المقابل نؤمن أن «العربية لغة قادرة على التعبير عن شتى فنون العلم، وأنها استوعبت كل ما نُقِلَ إليها من علوم الأمم الأخرى. وأنه ينبغي علينا الآن أن نثبت أن اللغة العربية ليست مقتصرة على جانب الأدب والشعر والغناء، وإنما تقوم إلى جانبها وحدة اللغة في الكتاب العلمي العربي»[19].

فاللغة العربية بالنسبة لنا لا يمكن أن تخرج عن دائرة اللغات الحية المتسمة بالقدرة على استيعاب كل ما هو جديد ولن تكون عاجزة عن تحقيق ذلك، لأن ذلك معناه الموت والفناء.

«لماذا نحكم على اللغة العربية بهذا الحكم القاسي ونقودها إلى ذلك المصير السيئ، وهي في نفسها – كما أثبتت – قابلة للتطور و قادرة على الحياة، إنه لا يجب أن نحمّل لغتنا وِزرَ أبنائها و لا نلقي عليها تبعة عجز العاجزين»[20].

ومن هنا كان علينا تجاوز فكرة الجمود والركود والخوف الذي صاحبنا في قدرات اللغة العربية وبخاصة أن التحدي الذي يواجهنا اليوم،هو تحد علمي تكنولوجي بالدرجة الأولى «فاستعمال اللغة العربية في المجالات العلمية والتوخي عبرها إلى إنتاج المفاهيم العلمية في مختلف الميادين، يطور قوانينها وأنماط تراكيبها، وطبيعة انبناءاتها، ويجعلها أكثر منطقية و عقلانية»[21].

إن هذه الرؤية العميقة ستشكل سندا لاستراتيجية تطوير اللغة العربية انطلاقا من واقع متميز يقوم على استيعاب الماضي وتطلعات المستقبل مما سيمكن من إضفاء الصبغة الحضارية على لغتنا ومجتمعنا. ذلك أن الرغبة المعرفية سواء أكانت في مجال العلوم التجريبية أم في العلوم الإنسانية تقتضي التمكن العلمي واللغوي بلغة عربية علمية واضحة الأسلوب و متكاملة المصطلحات.

قائمة الهوامش

1 – منتصر عبد العليم: التفكير العلمي الإسلامي. مجمع اللغة العربية القاهرة ج 15ص 35.

2 – حمد فوزي محمود 1985/84: اتخاذ العربية لغة تدريس العلوم في التعليم العالي.

مجلة اللسان العربي عدد24.

مكتب تنسيق التعريب الرباط ص 70.

3 – أحمد السيد محمود 1989: شؤون لغوية

دار الفكر دمشق .ص 46.

4 – المبارك محمد 1960: خصائص العربية.

جامعة الدول العربية

5 – عثمان أمين 1961: فلسفة اللغة العربية ص36.

الدار المصرية للتأليف والتراجم والنشر القاهرة ص 85.

6 – السويسي محمد 1961: العربية لغة العلم في القرن الرابع للهجرة

مجلة دمشق عدد 4.ص 677.

7 – أحمد السيد محمود 1989: شؤون لغوية ص 46

8 – الصيادي محمد المنجي 1982: التعريب وتنسيقه في الوطن العربي.

مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت ص 96.

9 – خسارة ممدوح. 1994: التعريب والتنمية اللغوية.

الأهلي للنشر والتوزيع.دمشق ص68.

10 – العاشوري عبد العزيز. 1981: اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارة التعريب.

المستقبل العربي السنة 4 العدد 27 أيار /مايو.

مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ص15.

11 – أحمد السيد محمود 1989: شؤون لغوية ص 16

12 – فندريس "ج".1985: اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص مطبعة لجنة البيان العربي القاهرة ص 421

13 – محمد محمد حسين. 1970: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج2.

دار الإرشاد. بيروت ص 21 22

14 – علي صبر يحي 1964: المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية.
مجمع العربية دمشق العدد 2 ص 372.

15 – عفيفي السيد عبد الفتاح 1995: علم الاجتماع اللغوي دار الفكر العربي القاهرة ص.83.

16 - LAKHDAR GHAZAL 1974 méthodologie de l'arabisation: problèmeS linguistiques et graphiqueS, la terminologie bilingUE Technique et méthode.
In jourNnées d'information sur les relations entre la langue arabe et la langue française. P128.

17 – الفاسي الفهري عبد القادر 1982: اللسانيات واللغة العربية.
منشورات عويدات بيروت باريس ص 356.

18 – السامرائي إبراهيم 1981: "التعريب والعربية في الجزائر واقع قديم ورؤية مستقبلية" مجلة المستقبل العربي عدد 23 يناير.مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ص 108.

19 – مازن المبارك 1998: اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي.
دار النفائس مؤسسة الرسالة بيروت ص 40.

20 – المرجع نفسه ص 32.

21 – حطب زهير. 1999: انعكاسات تدريس المواد الاجتماعية باللغات الأجنبية في المراحل ما قبل الجامعة.
مجلة الفكر العربي العدد 96 ص 126.